

ستيفان زفايخ

ورسالته الإنسانية الكبرى

روّعت أوروبا عام ١٩١٤ بقيام الحرب الكبرى التي تُسبّت نارها على حين فجأة ، فطوقت البطاح والوهاد ، والتهمت مصادفت من إنسان وحيوان ، ومن دور ونبات . تعكر جو أوروبا الصافي واكفهرت سماؤه ، فأخذت النفوس الهادئة الوادعة تنفعل وتضطرم ، والأعصاب تتوتر وتهدهج ، وطاش الصواب وطاحت الحماقة بالحكمة . وطفقت الجماهير تتجمع في كل مكان ، وتصيح وتصخب ، فيفقدوها الضجيح والصخب وعيها ، وتنقلب إلى قطع من البهيم المفترسة ، تردد في غير إدراك تلك الصيحة الطائشة الفاجعة « إلى الحرب . . . إلى القتال » .

اتّحت الحكمة حتى كأن الأمم لم تعرفها في يوم من الأيام ، ولم تخرج أساليب العنف ، ولم تستنكر وسائل القوة والبطش ، ولم تؤمن بالخير وتعزّز بحضارتها الحديثة التي جادت بها أصفي القرائح وأسمى المشاعر . . . لقد غاض العقل الراجح ، وجمدت المشاعر السامية . وعند ما رددت الحناجر الدعاء إلى الحرب أشبه صداها نعيم اليوم

في وسط هذا المعباب الطافح بالأحقاد وقف ستيفان زفايخ يقب ما يجري حوله بعين الحسرة المريرة ؛ فإن جنون الحرب لم يستطع أن يؤثر في نفسه الشاعرة . ذلك الجنون الذي سرت عدواه من الأمم المحاربة إلى الأمم المحايدة ، فانقسم العالم إلى معسكرين متخصصين ، ينصر كل معسكر منهما أحد الفريقين المتناحرين بما يعده به من أدوات التخريب والتدمير ، أو بالذواية المسمومة ، حتى فاضت نفوس البشر بالحقد والمقت ، ولم تعد له متعة إلا فيما كانت تطالعه من أنباء الفجائع التي عصفت ببني الإنسان .

ولكن نفس زفايخ كانت ، كما قلنا ، مطعمة بأسمى الخواص الإنسانية ، فثبتت

لتيار الآهواء الطائشة ، ولم تترد في مهاويها . بل إن نفوره من الشرور التي استفحلت واستشرت أشعره بالمهمة الكبرى الملقاة على عاتقه . أدرك أنه صاحب رسالة جلي عليه أن يؤديها ؛ فهو الشاعر الألمعي الذي درج على أن يبث أجمل أحاسيسه في قلوب الناس ، وأن يحدوهم إلى غايات الخير والعدل والجمال . والساعة الرهيبة التي تجتازها البشرية تتطلب منه أن يبذل قصاره ليبشر برسالة الحب والسلام ، وليفيض على العالم ما يكتنزه قلبه الكبير من عطف ورحمة .

آمن بعظم المهمة التي آلى على نفسه أن يضطلع بها ، وهبطت عليه المعاني والمشاعر كأنها إلهام منزل ، وفطن إلى وجه الشبه بين رسالته وبين رسائل الأنبياء ، فجرد فله الصغير السن ، الخطير الشأن . . . جرده ليحطم بسنه الصغير السيوف الفاتكة ، ويخترق الدروع السميقة ، ويزلزل حصون الشر والضلال .

ولكنه لم يغب عنه وهو بهم بتدبير رسالته أن الأنبياء لم يوفقوا في بث تعاليمهم ، وتوطيد العقائد التي بشروا بها باعتمادهم على القدرة السماوية ، وأن الأمم لا ترعوى عن غيها ولا تهتدى إلا بهدى السماء . ولما كان أوان التنزيل قد مضى وانقضى فقد ارتأى أن يستعين بأحد الأنبياء الأقدمين فيبعثه من جديد في ملحمة شعرية ، ويجري على لسانه ما يشاء أن يجريه . ولم يجد من هو أقن من إرميا ، نبي السلام ، بتحقيق هذه الغاية .

كتب زفايخ قصة إرميا ، وصور مجائع الحرب التي وقعت في عصر ذلك النبي . ولما كان التاريخ يعيد نفسه ، فقد جاءت القصة صورة مطابقة لعصر كاتبنا الفذ في شروره وآثامه . ولما كان إيمانه بالخير كإيمان ذلك النبي ، وتعلقه بالسلام كتعلقه ، وتجرده الروحي وسمو شعوره هيأه لتلقى الوحي ، فقد استحال إرميا في القصة الحديثة إلى زفايخ نفسه .

لما تجمعت الجيوش الجرارة إبّان الحرب الكبرى ، وسارت إلى ميادين القتال وهي تضرب في الأرض بأقدامها ، لم ينخدع زفايخ كغيره من الناس في مظاهر الفتوة البادية على الجنود الأشداء ، ولم تبهره سيوفهم المشهورة اللامعة ، ولم يفتنه نظامهم الحربي الرائع ، ولم تهدج أعصابه حماسه لأهازيج موسيقاهم العسكرية ، إذ كانت نظرتة أبعد من ذلك مدى ، وأدق تمحيصا ، فنفذت من

حجب الغيب ، وسبقت الزمن ، ورايتهم وهم عائدون من غمار القتال فلولا
هامة على وجوها عفرها التراب ، ونهكها التعب ، وختت ظهورها الذلة وخيبة
الامل . وفي هذا يقول على لسان إرميا :

« شفت المرارة نفسى ، فظفرت الكلمات إلى فى . . . نبؤنى بالله
يا إخوتى أبلغت الحرب من النفاسة مبلغا يدعوننا إلى الترنم بمديحها ، والإشادة
بالأهأ ؟ أهى مستطابة إلى الحد الذى يسوِّغ تهافتم عليها ؟ أهى كريمة فتستحق
منكم هذه التحية المنبعثة من سويداء قلوبكم ؟ . . . أما أنا فأسجل عليها أنها
ضارية كالحة الأديم . فهى تفرى جلود الأصحاء وتمتص نخاع الأشداء ، وتطحن
المدن بين فكيتها ، وتمحق الحقول بوطء نعلها . ومن يثرها يعجز من بعد عن
قمعها . ومن يستل السيف يمت بحد السيف . . . ويل لأولئك السفهاء الذين
يوظفون الفتنة بكلمة تخرج من أفواههم ، فإذا سلك هؤلاء طريقهم إلى القتال ،
عادوا أدراجهم لدى فرارهم من سبع طرق . . . الويل لأولئك الذين يكتمون
أنفاس السلام . احذروا هؤلاء . . . احذروهم . . . »

ساد أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر اعتقاد بأن الحروب قد انقضى
عهدا ورقت الرفاهية شعور الشعوب التى غرقت فى مجبوحتها ، وأحدث
ازدهار العلوم والفنون تأثيره ، فأيقن أبناء الحضارة الحديثة بأنهم سارون
بخطى واسعة صوب المثل الأعلى الذى بشرهم به المتفائلون من أئمة كتآب
القرون الثلاثة الأخيرة . وما طلع سبنسر على العالم المتحضر بفلسفته حتى قوبل
من أبناء القرن التاسع عشر بلا استهجان ؛ فقد رأى على ضوء بحوث داروين أن
الإنسان لم يخلق من طينة تختلف عن طينة غيره من أنواع الحيوان ، وأنه
خاضع لقانون الغاب ، قانون السيطرة للقاهر الغلاب ، ولا يخطو فى وشائج هذه
الحياة خطوة إلا وهو مدفوع بحكم تنازع البقاء . ولم يلبث مقتنعو هذا
المذهب أن طنطنوا به ، وأهابوا بالناس أن يفيقوا من خوادع الأوهام ،
وأن ينزلوا إلى دنيا الحقائق ، ويحاربوا مشكلاتهم على أساس الواقع .

وما هل القرن العشرون حتى ازدادت العلوم ازدهارا ، وتعددت المخترعات
التي بهرت الألباب ، ورسخت العقيدة بأن الإنسان سيد هذا الكون ، فهو
قاهر الطبيعة ومسخر عناصرها لتحقيق غاياته ، والمهيمن على مصادرها

ومواردها . وبدأ المستقبل باهرا ، حتى خيل للعالم المتحضر أنه يرى خلاله غايته المنشودة ، وهي الكمال .

وازدادت الزاوية بنظرية سبنسر ومؤيديه على مر الأيام ، وامتعض راكب السيارة والمستمع إلى الحاكى ، والمستضىء بالكهرباء من أن يحشدوا في زمرة الحيوان . ولكن حدث في عام ١٩١٤ أن انقلب هؤلاء السادة بالفعل إلى ضوار كاسرة كشرت عن أنيابها ، واقتحمت ساحات الوغى مزججة ، ونهشت لحوم بني جلدتها من البشر ، واستماتت في ميدان هي قاتلة فيه أو مقتولة . وهكذا حققت الأيام ما ذهب إليه سبنسر وما كسلى وما يكل وأضراهم ، وأيد أبناء الحضارة الحديثة فلسفة هؤلاء بأساليب لا تختلف عن أساليب الوحوش بعد أن شبعوا منها سخريه .

وأظهرت كثرة الكتاب بأسها من البشرية التي نكصت على أعقابها بعد أن خيل للمتفائلين أنها سائرة قدماً في سبيل أوج الحضارة ، وتعالى نداؤهم بتوديع الأحلام الذهبية والتسليم بالواقع . ولا غرو في أن تودع البشرية آمالها بعد أن كثرت الدعاية لمذهب تنازع البقاء ، وبعد أن جاءت الحرب الكبرى داعمة لهذا المذهب الخطير .

ولكن فريقاً من الكتاب ذوى النفوس العامرة بالإيمان أبى أن يكفر بالخير ، وأن يسلم بأن للغرائز البهيمية الغلبة في النهاية على الفضائل الإنسانية ، ولم ير في الحرب الكبرى إلا حلقة من سلسلة الحروب السابقة التي لم تنشب إلا لحكمة سماوية .

رأى هذا الفريق ، وعلى رأسه زفايخ ، أن القدرة الصمدية الخارقة لم ترد بالإنسانية إلا خيراً ، ولكن النقيض لا يعرف إلا بنقيضه ، ولا يظهر الضد إلا الضد ، ولا سبيل إلى الخير العميم الشامل إلا بعد أن تلبو الإنسانية ألوان الشرور جيلاً بعد جيل ، وبعد أن تنصهر في بوتقة المكاره والآلام ، فتخلص من عللها ، وتنفر بعد ذلك من شرورها وآثامها نفورا لا رجعة بعده إليها ، وترقى بعد أن تتطهر من أثرها الفانية إلى الخلود .

حرص زفايخ على بث هذه العقيدة في آيات القصة التي نتناولها في هذا العرض ، فكرر القول في أكثر من موضع منها بأن سبيل الخير هي في تجرد الإنسان من صلفه وكبريائه ، وبأن الله قدم البلاء

لتستساغ من بعده النعم والآلاء . وفيما يلي نتف بما كتبه في هذا الصدد .

قال إرميا يخاطب المولى :

طهرتنا بالخير ثم رفعتنا . . . من بعد أن جمحت بنا الأوزار
وبثت فينا جذوة الحب الذي دار الوجود عليه حيث يدار
لما أردت الخير قدّمت الأذى ليشوقنا بعد العناء يسار
فبدت لنا نعم الحياة جزيلة من بعدما عصفت بنا الأقدار

وقال أيضاً :

لست أشقى إلا لينعم غيرى بشقائى فى كل عصر وجيل
ويدول العهد المقيت ويزهو عهد حب من بعده مأمول
إن فى موتى المبكر يا قو م حياة للعالم المحذول

وقال كذلك يخاطب المولى :

لك أجتو يا إلهى خافض الرأس خشوعاً
أضرم النار وقطب واعمر الأرض نجيعاً
وانبذ الشعب الذى اخترت فرادى وجوماً
كلما أبعدتنا أر جننا الحب رجوماً
كلما عذبتنا ازددنا ولاء وخضوعاً

لا غرابة فى أن يطلع علينا علماء التاريخ الطبيعى بنظرية تنازع البقاء ، وفى أن تتأسس هذه النظرية لا على أن الإنسان نظير الحيوان فى غزائره فحسب ، بل على أن كل إنسان يشبه نوعاً من الحيوان فى صورته كذلك ، وينحصر الجميع لقانون طبيعى واحد . ذلك لأن أولئك العلماء توفروا على دراسة الحيوان ومراقبة التطور الطبيعى الذى يطرأ عليه ، وتسجيل طباعه وعاداته . وهذه الممارسة الدقيقة ، وهذا الإدمان الطويل مما يزيغ البصر ويضل الحواس . فلا يلبث الممارس المدقق الذى انحصر فكره وحسه فى دائرة بحثه أن يتأثر حكمه على الأشياء الخارجة عن هذا النطاق بما استقر فى وعيه من سوانح ونظريات

خاصة بذلك البحث ، وإذ به يرى الدنيا بمنظار هذه السوانح والنظريات .
وإذا كفر علماء التاريخ الطبيعي بما "تحلى" به الانسان من سجايا وخلال
تؤهله لبلوغ المجد الذي يصبو إليه ، فمن مقتضيات الطبايق أن يمجج شاعر مثل
زفايج بدعة هؤلاء ؛ لأن الشاعر الذي رق حسه وصفت نفسه ونفذ بصره إلى
مواطن الجمال المادى والمعنوى فى عالمنا الأرضى ، وحلق فى سبجات الفكر
السامية ، استطاع أن يرى أى بون شاسع يفرق بينه — وهو من بنى
الإيسان — وبين سائر الحيوان . . . إن الشاعر الملهم هو الآية الإلهية التى
تدحض فرية أولئك العلماء ، وهو الذى يصوغ فى روائع شعره أغاني الخلود
فتترنم الإنسانية بها وهى تخطو قدماً إلى مثلها الأعلى . وقد اضطلع زفايج
بهمة الشاعر الكبير وصاغ قصة إرميا الشعرية ليحلق من يقرؤها فى أجواء
الملائكة ، ويتبين وهو فى عليائه مبلغ ما فى رأى المتشككين فى سمو الإيسان
من خطل .

تقع حوادث هذه القصة فى عصر قويت فيه شوكة آشور حتى صارت
خطراً على جيرانها . ولم يخف على حكومة مصر أن الآشوريين وقد أنسوا من
أنفسهم القوة يحملون بالعيش فى ظل وادى النيل الممرع ، فأوفدت بعثات
عسكرية إلى الدول المتاخمة لها بقصد الاتفاق معها على دفع الخطر الآشورى
الداهم . وفى ذات يوم وصل بعض قواد الجيش المصرى إلى أورشليم لتحقيق
الغرض المذكور ، فقابلهم الشعب بالهتاف والتهليل ، ورحب بتحالف الجارين
على دفع أذى المعتدين . وبينما كانت حماسة الجماهير فى ذلك الحين على أشدها
تصدى لها إرميا ، وحاول إقناع الهاتفين للحرب بأن فى دعوتهم إليها هلاكهم
وخراب بلادهم ، وبأن سلام الله أولى بالدعوة إليه . ولكن الحكمة لا تجد
سيبلا إلى لب من طاح بلبهم الطيش ، وكان نصيب ذلك الداعى إلى الخير أن
رمى بأقبح الصفات : رماه بعضهم بالجبن والخور وبخيانة الوطن ، ورماه
بعضهم الآخر بفساد الرأى وقلة الإدراك . وعندما صارحهم بأن الله جل
شأنه هو الذى بعثه إليهم ليحذرهم مغبة الحرب ويدعوهم إلى السلام ، وأن
الوحي السماوى هبط عليه فى المنام ، رموه متهمين بخبل العقل ، وبأنه مريض
بداء الأوهام والأحلام .

وبينما كان المتظاهرون يضحون في ساحة المدينة الكبرى داعين إلى امتشاق
الجسام إذ بملكهم صدقيا يخرج من قصره ، ويتجه على رأس البعثة العسكرية
المصرية صوب المعبد ثابت الخطى شاهر السيف . ولكن صرخة مدوية تصدر
في اللحظة من أعماق قلب إرميا وتطبق الآفاق :

— يا صدقيا . . . أحمده سيفك . . .
يتوقف الملك ماخوذا برهبة ذلك الصوت ، ويرتجف السيف في يده .
وتتخاذل يمينه وتتساقط ، ويتلفت ليتبين مصدر ذلك الصوت . ولكن
صيحات الشعب الغاضب يجلجل في هذه الأثناء ، وتم الأرجاء فتغمر صوت
إرميا . ولا تلبث حماسة الشعب أن تدب في أوصال الملك من جديد ، فيشهر
سيفه كما كان ، ويعود إلى مشيته الأولى صارم الوجه ثابت الخطى .
تقع الحرب ، وتروج اشاعات بانتصار المصريين على الآشوريين ، فينتشى
شعب أورشليم زهوا وطربا ، ويوسع إرميا سخرية وتنديدا . ولكن النبي
يصرخ في الساخرين المنددين قائلا :

— الرسول في طريقه الآن .
وما هي الإهنية حتى يبدو من وراء سور المدينة الرسول الذي رآه إرميا
وهو لا يزال في حجاب الغيب . أقبل ذلك الفارس ينهب جواده الأرض ،
وأعلن للشعب المتكأكي حوله الحقيقة سافرة بالغة من سوء مبلغا تنقلب
معه العجرفة والصلف إلى ذلة ومسكنة . فالجيش الآشوري قد تغلب على جيش
مصر ، وانكشف طريق أورشليم أمام بختنصر .

سقطت مدن فلسطين في أيدي العدو مدينة بعد مدينة ، ورأى شعب
أورشليم من فوق أسواره أعمدة اللهب تتصاعد في ظلمة الليل من تلك المدن ،
فيتوقع حتفه الزاحف إليه ، وينتظر انقضاضه مرتعد الفرائص وجلا ، ولم تلبث
الحرب التي دعا إليها أن صبت ويلاتها عليه . ففي ذات ليلة سمع هديرا كهدير
البحر يتصاعد من الصحراء المترامية وراء أسواره ، فأدرك أن ملك الظلام
قد أقبل بحفله الجرار ، وحاصر مدينته العزيزة عليه .

تقع مقابلة في هذه الآونة العصبية بين صدقيا الملك وبين إرميا النبي .
ويفطن أولها إلى أن الثاني هو الذي أهاب بالسلام في ساحة المعبد يوم دعا
الكافة إلى الحرب ، فيقول له :

— لم تحاشيتني؟ ... لم تخلت عني؟

فيجيب إرميا:

— إني لم أبعد عنك لحظة ، ولكنك لم تظن لوجودي . أنت لم

تهتد إلى .

— كم من أمور تنبأت بها يا إرميا فحققت الأيام جميع نبوءاتك ، حتى صار

لحكمتك تأثير بعيد المدى من نفسي . ولهذا سأطلعك على سر يجمله الجميع

لتدلي برأيك فيه . بعث إلىّ بـمختصر برسول يعرض الصلح .

— لله الحمد ... افتح لهم الأبواب ، افتحها ... وافتح أبواب قلبك .

— لا تتعجل ... إن شروط العدو قاسية .

— أنت بادرته بالصلف والكبر ، فاحتمل كبره وصلفه .

— أليس صون الشرف من مهام الملك ومن مفاخر التاج؟

— لا تكن حريصا على ما ملكت يداك ... فاجل الشرف الذي يفوز

به من يحتمل العذاب في سبيل الكافة ، ويشقى لينقذ المتعلقين بأهداب

الحياة ... طاطيء هامتك فلا نجاة إلا في خضوعك ...

يأبى صدقيا أن ينصاع لنصيحة إرميا ، فيثور هذا الأخير ويتهم مليكة

بأنه عرض بلاده برعونته للدمار ، ودفع بشعبه إلى الهلاك . فيغضب المليك

وينذر ويتوعد ، فيجيبه النبي :

ض فتجثو قسراً على ركبتكما

يغمر التراب صفحتي خديكما

ش وينزوا منه اللهب إليك

ك لمحو الضياء من عينيك

ل هوت طغمة العداة عليك

يتعالى الدخان من محجركا

ن لظاهم ليسموا مقلتيكما

سوف يلقي بك العداة إلى الأرب

ويعس الثرى جينك حتى

اللظى في الآتون يهدر كالوح

فيه فصل يحمونه تحت عيني

فاذا ابيض بعد حمرة النص

تدفن النصل بين عينيك حتى

ما يزلون طيلة الليل يحمو

يتراجع صدقيا مرتابا ، ويمد يديه كأنه يدفع عنه القدر ، ولكن إرميا

لا يباليه ، ويتم نبوءته الرهيبة :

قبل أن يطفىء العدا منك نور النواظر
سوف تُبلى بمحنة في بنيك الأصاغر
ستراهم ثلاثة في مهب المقادير
جاء جلاّدهم إليهم هم مخوف البوادير
أنت عن دفع ما قضى فيهم غير قادر
قيّد القوم ساعدي لك فزججر وهاتر
كل ما تملك الصيا ح وشق المرائر
ثم تهوى رموسهم صاغراً بعد كابر

صدقيا

رحمة بي يا إرميا رحمة بي

إرميا

ستنادى كما تنادى الآنا قارفته يداك والغمرانا
راجياً من إلهك العفو عما مدقع الفقر يألساً حيرانا
يا أعز الملوك جاهاً ستمسى ذا من الناس جائعاً عريانا
بأسطاً للسؤال كفيك منبو ت عليه فيما مضى سلطانا
هائماً كالغريب في بلد كذ اد أو من سألهم إحسانا
لا يباليك من لقيت من الرو (م) نى ولم يعرفوا المليك المهاننا
جهلوا أمر ذلك السائل العا سك من جام حقدّم ألوانا
فاذا ميزوك صبّوا على رأ

يملاً الفزع قلب صدقيا ، ويترنخ كالأعمى ، ويتساقط على مقعده وقد ضعفته
شخصية إرميا الغلابة ، ثم يناشد هذا الأخير متضرعاً أن يرحمه ، فيجيبه بأنه
قادر على لتنبؤ بسر الأقدار ، ولكنه غير قادر على دفع عوائلها .
تقلت الفرصة من يد صدقيا لأن رسوا ، يختصر عاد أدراجة ، قبل ذلك اللقاء
الذى وصفنا تفصيله ، يحمل إلى ملك الظلام رفض اقتراح الصلح . ويصور
زفايج آخرة صدقيا الذى أقحم شعبه في حرب سحقته بين شقبيها . فقد كبله العدو
بعد افتتاح أورشليم بالأغلال ، وقاده إلى الساحة الكبرى ، وضرب الجلاد عنق

أولاده الثلاثة على مشهد منه ، ثم أطفأ نور عينه . . . وهكذا تحققت نبوءة إرميا بحذافيرها .

ويتخذ زقايج من هذا الملك الناعس في آخر قصته عظة لكل متكبر صلف . فنراه يخرج من باب قصره كفيف البصر ، محاطاً بأمرء كلبية السكاري الذين اتخذوه أداة للهو والمفاكحة ، فأخذوا يتقاذفونه وهو يترنح ويكاد يسقط بين كل خطوة وأخرى . ثم تعالت أصواتهم الساخرة منادية :

— يا قاهر بابل . . . قف وناهض بختنصر .

— لا تسقط على الأرض فأنت عماد أورشليم .

— لم لا ترقص لنا رقصه داود ؟

— دعوه يشرب ظلمة الليل ، ولنعد نحن لنشرب السلاف الصافية .
يتعد الملك الطريد عن قصره متعثراً ماداً يديه في الفضاء حتى يقبل على شعبه المهتبي للرحيل الى منفاه ، فيقابل بعاصفة من السخط والاستنكار ، ويرى بأنه كان السبب فيما حل ببلده من أرزاء

وبينما لهم يقطع نياط قلب الشيخ الأعمى الدليل ، إذ يقبل عليه إرميا مشفقاً ، ويأخذ بيده ، ويخاطبه بصوت يسمعه الملاً :

— لقد أمسيت ملك الآلام ، ولم يبلغ مُلكك في يوم من الأيام مثل الذروة التي سما إليها اليوم . كنت أناهضك يا سيدي حين ازدهار جاهك ، واكتمال سلطانك ، ولكنني أنحني اليوم أمام من خناه ربه .

ثم يلتفت إلى الحشد ويستطرد قوله :

أغمض الله له عينيه حتى لا يرى إلا : أتانيم السماء

غضّ جفنيه فدارت مقلته في امتداد الأفق الضاحي السناء

سخرت جمهرة الجهال منه وهو مولى الأشقياء السعداء

عاهل المستضعفين الشهداء .

والشخصية الأخرى التي نثت فيها زقايج الحياة في قصته ، وسخرها كذلك لتبيان مقصده ، هي أم إرميا . اعترضت هذه الأم سبيل ابنها ، ونددت بالدعوة للقدسية التي آلى على نفسه أن ينشرها بين الناس ، وانضمت إلى زمرة

الساخطين عليه ، وحرمت عليه دخول دارها حتى يعرعى ويؤمن بأن شعب الله المختار لا يقهره قاهر ، وبأن معبد الله فوق متناول التخريب . ويحاول النبي أن يقنعها بقدسية رسالته ، فزداد عليه سخطا وتكليل له اللعنات . فيغادر دارها ثابت الجأش بعد أن يصرحها بأنه وطن نفسه على تأدية رسالته مهما قام في سبيلها من عقبات ، وبأنه يستعذب في تلك السبيل كل تضحية حتى لو كان حب أمه له وعطفها عليه مما يضحي به . ذلك لأن الكلمات التي تخرج من فم هي كلمات الله ، وهو لا يملك إلا الشفة التي تنطق بها .

تشرع الأم بعد هجران ابنها لها بوحشة لا قبل لها باحتمالها ، ويرح بها همٌ مقيم لا يلبث أن يسلمها الى مرض عضال . وسرعان ما تستغرق في غيبوبة طويلة لا يقطع سكونها إلا أحلام مفزعة تمثل لها انها معرضا عنها ، نافرا منها . ويخشى خادمها الأمين أشعب على حياتها ، ولا يرى وسيلة لتخفيف وطأة مرضها إلا أن يستقدم ابنها . فأرسل في أثره من يبحث عنه ويعود به إليها ، وكانت الهزيمة قد حاقت أثناء مرضها بأمها ، ولكنها لم تعلم من أمرها شيئاً .

وقف إرميا بباب غرفة أمه ، فسارع إليه أشعب ، ونبهه إلى جهل المريضة بالحنة التي حلت بأورشليم ، وأوصاه بالألا يلح إليها بكلمة عنها إبقاء على حياتها . ونظر الولد إلى أمه المستلقية على فراشها ولم يجروء على التقدم . ففتحت جفניה ، ونصت في فراشها ، ونادت وحيدها بصوت يهدج ضعفاً وحناناً ، ولم يلبث الحائر المتردد أن أسرع إليها وارتمى في أحضانها ، ودار بينهما حوار طويل فاض بالعتب الرقيق ، وبالحب والعطف المتبادل بينهما . وعرجت الأم على نبوءة ابنها فقالت :

أنا آمنت بالحقائق لم أع
أنا لقتتك الحقائق هدى
لن ينال العدو منا فإن الـ (م) — راع لعابديه وحام

اكفهر وجه إرميا ، وانتفض جسده ، وردد في ذهول :

لن ينال العدو منا فإن الـ (م) — راع لعابديه وحام

وامتقع وجه الام ، وسألته :

لم هذا الخوف المريب الفجائي ؟ لم هذا القنوط بعد الرجاء ؟

ازداد اضطراب إرميا ، وعجز عن أن يجير جواباً . فتوسل إليه الخادم أشعب أن يعيد إلى سيدته طمأنينتها :

قل لها قولاً يسرّي بُرْحاءُ الهم عنها
بعد أن صار رداها دون قيد الرمح منها

وقالت سيدة من أقربائه كان المجلس لضمها :

موه عليها الحقيقة وارفق بأمر رفيقه

وحاول إرميا الكلام من جديد فلم يسعفه القول . وعاود أشعب إلحاحه :

بلفظة يا إرميا واحدة ترجمها

وقالت القرية :

أيامها محدودة أبالأسي تختمها

فهمس إرميا متخاذلاً :

لا استطيع ان أقو	ل لفظة توهمها
يأبى عليّ أن أقو	ل لفظتي ملهمها
قد مكنت من عنقي	وأوشكت تحطمها
يد لها قدرتها	من الذي يفصمها ؟
يارب أطلق قيدها	فلست من يظلمها

وأدركت الام الحقيقة فولت :

الويل والدمار	شبت بجسمي النار
وبلدي ومعبدى	كلاهما ينهار
أودى بنا البوار	وأظلم النهار...

وسقطت على فراشها جثة هامدة .
 هكذا يَحْتَمُ زقايج حياة أم النبي . فهي لا تتبين مغبة وقوفها في سبيل
 الدعوة إلى السلام حتى تموت حسرة وغما .

أما الرُعماء والأنبيا الذين عملوا على إذكاء الحرب وأغروا الشعب بخوض
 عمارها ، فلم تلبث رحاها أن هشمت عظامهم ، وسحقت مشاشهم . وعملت
 ريشة الشاعر الفنان على تصوير مشاهد الدمار والهلاك اللذين حلا بأورشليم
 وأهلها . فأسوار المدينة مهدمة ، ومعبدها مخرب ، وطرقها ملوثة بالدماء
 الآدمية ، والجثث ملقاة على الأرض متحجرة معفرة ، شاخصة العيون ، طاغرة
 الأفواه ، مطبقة الأيدي على التراب .

يستهل إرميا هذا العقاب الصارم الذي أزله الخالق بعباده ، وينخلع
 قلبه جزعاً عليهم ، فتثور ثورته ، ويكاد إيمانه يترزع . ولكن حكمة
 الخالق لا تلبث أن تتجلى له ناصعة ، فيثوب إلى رشده ، ويدب الإيثار إلى
 قلبه قويا عازما على مثل ما كان من قبل . ويشعر بأن عليه مهمة كبرى جديدة
 يجب أن يؤديها ، وهي أن يواسي الشعب المنكود ، ويعيد إليه ثقته وإيمانه .
 يذهب إلى ساحة المعبد فيرى الملك صدقيا يتخبط في الظلام على النحو
 الذي وصفناه سابقا ، ويبشر القوم بقرب انهزام مجتئصر وزوال ملك آشور ،
 ويقول فيما يقول :

كل من جرد نصل الـ	سيف بالسيف هلك
أو أسال الدم سال الـ	دم منه وانسك
والذي عادى يعادى	هكذا دار الفلك

يحدث هذا القول تأثيره المنشود ، فيواصل النبي وعظه :
 « كَأَنِّي وَأَنَا أَخْبَرُ آلَ مَكِّ يَا إِخْوَتِي أَطَالَعُ كِتَابًا مَفْتُوحًا ، وَتَتَكشَفُ لِي
 مَعَانِي السُّطُورِ الَّتِي خَطَّهَا الشَّقَاءُ وَالْعَذَابُ . وَلَكِنِّي أَتَبِينُ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ حِكْمَةَ
 النُّوَابِ الَّتِي بَلِيْتُمْ بِهَا ، وَأَرَى ذَاتَ الْبَارِيءِ تَتَجَلَّى خِلَالَهَا . . . وَإِذَا عَمِرَ
 الْإِيمَانُ قُلُوبَكُمْ ، بَثَّ اللَّهُ فِيكُمْ الرُّوحَ ، وَبِعَثْمِكُمْ مِنْ جَدِيدٍ . لَا تَمَلُّوا الدُّنْيَا

شكاية وولولة ، فنحن نشقى فنستمد القوة من شقائنا ، ونكبو فننهض ثانية
ونحن أثبت قدما وأقوى عزماً . «
ولا يزال إرميا بمستمعيه حتى تفور بين الشعب فورة حماسة جارفة ،
وينتصر الروح انتصاره الخالد على قوة المعتدين المادية ، ويبثق الأمل فيبدد
ظلمات اليأس . ويحين ميعاد رحيل المقهورين إلى منقاهم في بابل فيغادرون
بلدهم في موكب وراء موكب ، ويرددون أثناء مسيرهم أناشيد زادت حماسهم
تأججا حتى أخذ بعضهم يرقص من شدة الطرب .
يرقب زعماء كلدية هذه المواكب المنشدة الراقصة فيتملكهم العجب ،
ويسأل أحدهم :

— أى شعب هذا ؟ أليس هو الشعب المهزوم !
ويعقب آخر :
— بم يترنم ؟ . . . ياله من شعب عجيب !
فيجيب ثالث :

— هناك سر يبدلهم من حال إلى حال . هناك قوة خفية تملؤهم نشوة . إنهم
يؤمنون بعالم غير منظور . . .
ويسأله الأول متعجبا :

— وكيف يؤمنون بما لا يرون ؟ لا بد من أن تتعلم عنهم هذا السر
الغريب .

إننا نستطيع إبادة الرجال ، ولكننا لا نستطيع إبادة الروح الكامن فيهم .

بهذه العبارة تنتهى قصة زقايج الخالدة . ولكننى لا أستطيع أن أنهى كذلك
هذه العجالة حتى أعرض لمشهد استوقف نظرى من أحد الفصول الأولى لتلك
القصة .

قلنا فيما تقدم إن الشعب كان يهتف للبعثة العسكرية المصرية فى ساحة
أورشليم الكبرى ، ويدعو إلى امتشاق الحسام ، وخوض غمار الحرب . وقد
وقع قبل أن تصل مظاهرة الشعب إلى تلك الساحة أن اعترض إرميا سبيل
المتظاهرين وحاول إقناعهم بالعدول عن دعوتهم الطائشة والتمسك بأهداب
السلام ، وطقق يندد بجالبة الشرور ومخربة الديار ، ويعدد آلاء السلم ونعم

الوثام ، ولكنه قبول بغضب صاخب . وخ له من بين صفوف الحشد شاب ترتجف أعصابه حماسة ، وطلب إليه في لهجة الأمر أن يتنحى عن طريق المظاهرة . فلم يكن من إرميا إلا أن هتف في وجهه للسلام ، فهدده الفتى بضرب عنقه بحد سيفه ، فظل النبي ثابتاً في مكانه ، باسطاً ذراعيه ، مناشدا المتظاهرين بأعلى صوته أن يثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن الغرض الذي قصدوا إليه

يهوى الفتى عندئذ بسيفه على إرميا فيصيبه في جبهته ، ويفادره ملقى على الأرض متخبطاً في دمه ، ويسير مع الجماهير إلى ساحة القصر الملكي . ولكنه سرعان ما يتوقف ، ويدفعه دافع من نفسه إلى استطلاع أمر ذلك الرجل الذي اعتدى عليه . فيعود أدراجه بطى الخطى ، مزاحماً تيار المتظاهرين . ولا يصل إلى حيث يرقد إرميا حتى ينحني عليه ويقول :

— لا تتحرك . دعني أجفف الدم المتدفق على عينيك .

يفتح إرميا جفنيه ويسأل في لهفة :

— أين ؟ ... أين الناس ! ... الطريق مقفر ... آه . لقد ذهبوا إلى

القصر ينعمون ويستزلون غضب السماء ... إحملي إليهم ...

فيتعجب الفتى ويحجب :

— اترغب في محاولة أخرى تناهض بها الكافة وحدك ؟ أنت تلتقي بنفسك

إلى التهلكة .

ويناديه إرميا :

— أمسك بي ... أعنى على النهوض ... سر بي إليهم .

ويقول الفتى وقد ازداد عجبه :

— وأنا الذى حسبك جباناً ! ... أنا لم أناهضك إلا وأنا واقع تحت تأثير

هذا الحسبان الخاطيء !

— ألا تظن السعى في سبيل السلام كفاها ؟ إنه يتطلب جلدأً وبأساً

قد لا يتطلبهما القتال . إن الذين ينشدون السلام يحوضون حرباً لا يخدم

لها أوار .

— إنى أو من بك لأنى رأيت صفاء عينيك وهدوءها على بريق سيفي

المصلى .

- كيف تؤمن بي ، وقد طعنتني وأنت تناهضني منذ برهة ؟
— أو من بك لأنني رأيت دهك المسفوك يؤيد دعواك .

كتب زقايج هذه القصة وسط أتون الحرب الأوربية الكبرى . وما وضعت تلك الحرب أوزارها ، ونشر شاعرنا الكبير مؤلفه بين الناس حتى اطمانت نفسه ، حاسباً أن عهد الحروب قد مضى بغير رجعة ، وأن دعوته السلمية المنبعثة من سويداء قلبه ستجد السبيل إلى كل قلب .
ولكن الأيام بددت حلمه الجميل ، واشتعلت نار الحرب العالمية الأخيرة ورأى أن دعوته إلى السلام لم تكن من القوة بحيث تحول دون وقوع الحرب ، فأراد أن يثبتها ويدعمها بدمه المسفوك فأزهق روحه . وهكذا وضع أن ماسطره في قصته لم يكن مجرد بديع وبيان ، بل كان أصدق تعبير عن أشرف عقيدة آلى على نفسه أن يبذل في سبيلها أثمان ما يملك ، وقد بذل حتى نفسه في تلك السبيل .

محمد مفيد الشربيني